كتب الأطفال

أن التغير الذى طرأ على تعليم الأطفال وتربيتهم يكاد يعد ثوريا . فإن العصا التى كان لها المقام الأول فى هذه المهمة قد بحدت حتى صارت المدارس لا تعرف معلما يحمل العصا بل صار الآباء يكرهون أن يوصفوا بالقسوة . وشعار التربية هذه الأيام هو الحب . فالآباء الناجحون فى تربية أبنائهم هم الذين يعاملونهم بالحب والفهم مع الحذر من التدليل . وكذلك المدرسة الناجحة هى التى يعامل فيها المعلم — بل المعلمة — الأطفال بالرفق والإغراء والتسلية والترغيب حتى ينشأ الطفل وهو هادئ راض عن بيئته ، لا يحمل فى نفسه حقدا على أحد ولا تتكون له مركبات نفسية تعطله عن النظر السليم والسلوك المستقيم .

ومن هنا نشأت " رياض الأطفال " التى يتخذ فيها التعلم أسلوب اللعب وتستحيل الواجبات المدرسية إلى أعمال يدوية وذهنية يحس فيها الطفل أنه لاعب يتسلى وليس دارسا يسأم درسه . "وروضة الأطفال" تضيق وتتسع وفقا لحال المدرسة من ثراء أو فقر بحيث قد تكون غرفة مجردة إلا من أشياء قليلة القيمة فى التعليم والتسلية كما تكون مبنى حاويا لكثير من الغرف والأبهاء والحدائق والملاعب يتنقل فيها الطفل من مكان إلى آخر ويجد فيها ما يحث ذهنه على التفكير ويديه على العمل .

وكذلك الشأن فى كتب الأطفال . فإن التغير فيها عظيم وليس هو تغير الكم بل تغير الكيف . فقد كنا نتعلم فى صبانا فى أوائل هذا القرن كيف نقرأ "الفوائد الفكرية" لمؤلفها المرحوم عبدالله باشا فكرى ، وكانت مجموعة من النصائح عن الأخلاق المجردة التى لا يكاد يفهمها غير الراشدين . ولم يكن فيها فصل واحد يمس النشاط الذى يهتم به الأطفال كأن الطفل كان يجب فى اعتقاد المؤلف أن يكون رجلا يعرف فوائد الصدق وأضرار الكذب والبر بالوالدين وخدمة الاوطان . وكنا نطالع هذا الكتاب أو تملى علينا منه الأمالى ونحن لا ننتفع إلا بالكلمات القليلة التى تدخل فى مألوفنا الطفلى أما سائر كلماته الكبيرة ومعانيها الدقيقة فبقيت غامضة مغلقة علينا الى أن شببنا وتناولناها من مؤلفات أخرى .

ولم تكن الكتب الأخرى التى استبدلت بهذا الكتاب أو التى كانت تقرأ وتدرس إلى جانبه بأحسن منه . ولعجيب أن الكتب الانجليزية الابتدائية التى كانت توزع علينا كانت بصورها وأسلوبها وقصصها تتناول شؤون الأطفال ، ولذلك كانت تثبت ألفاظها فى أذهاننا وتجرى بها ألسنتنا أكثر مما كنا نجد فى كتب المطالعة العربية التى كانت توزع علينا . فبينما كنا نجد فى الكتب الانجليزية أحاديث عن الثور والحمار والمائدة والمطبخ ولعب الكرة وقطف

الثمار والعصافير والأشجار مما يثير اهتمام الطفل أو الصبي ويحرك خياله وتلصق الفاظه بذهنه كانت كتب المطالعة العربية تسئمنا إما بنصائح أخلاقية عالية تتجاوز إدراكنا وإما بقصص عربية قد نقلت بنصوصها فكانت غريبة بموضوعها وعباراتها عن مألوفنا وفهمنا .

ولكن حوالى سنة ١٩١٠ ابتدأ المرحوم على عمر بك مع شركائه فى وضع سلسلة "القراءة الرشيدة" نحا فيها نحوا جديدا فى اختيار الموضوعات التى تمس اهتمام الأطفال وخيالهم كما عنى باختيار الكلمات التى لا تتجاوز قدرتهم على التفهم وإن لم يوفق كثيرا فى هذا .

ومنذ تلك السنة تقريبا ونحن نرى التجديد يأخذ بأساليب التأليف للأطفال . وصرنا نرى كتبا فى التاريخ الطبيعى وفى القصص المترجمة أو المؤلفة تنشر مع العناية بالتزيين والتصوير مما يجعل الكتاب تحفة يرغب الطفل فى اقتنائها للتعرف على ما فيها من غرائب تسترعى اهتمامه وفضوله الذهنى . وليس هنا بصدد السرد لجميع المؤلفات الجميلة التى نشرت فى العشرين سنة الأخيرة ولكننا نذكر بعضها للدلل به على غيره . ولعل الأستاذ كامل كيلانى خير من نذكرهنا فإنه قد ألف كتبا عربية على نمط كتب الأطفال الانجليزية بعد أن جعل الموضوع مصريا تلابسه جغرافية مصر وتاريخها . كما أنه ترجم بعض القصص الانجليزية وأحيانا عمد الى القصص العربية القديمة فنقح فيها وأخرجها مصورة بعد أن زودها بتفسير الكلمات البعيدة عن مألوف الصبيان . وله الآن نحو خمسة عشر مجلدا صغيرا تؤلف مكتبة جميلة للأطفال وتستحق عناية الآباء والمعلمين معا .

ومن المحاولات التى كان يجب أن تنجح لو أنها لقيت العناية التى تستحق مؤلفات صغيرة محمد حمدى بك والمستر جورج روب وهى تسير على النمط الانجليزى فى العناية الكبيرة بالتصوير الكثير والكلام القليل والتجويد لهذا المصور .

ومن الجهود الحسنة التى قام به الأستاذ احمد عطية الله إخراجه مجموعة من الكتب التى تتدرج قطعها فى الطبع وصعوبة فى القراءة ، وقد ضمها جميعها فى علبة خاصة يقتنيها الطفل فيجد فى وضعها هذا ما يحمله على صيانتها وقراءتها والإعجاب بها .

والسيدة زكيه عزيز مجموعة طريفة من الأوراق المسيكة المفصلة تجمع جميعها فى علبة خاصة وعلى كل ورقة من هذا الكرتون صورة لحيوان أو نبات أو أداة مع جملة كلمات مفردة تجعل الطفل المبتدئ يقرأ فى لذة كأنه يلعب ويعبث . ثم هو يجد فى هذه الصور الزاهية ما يحمله على الرسم والسؤال والتفهم فتمهر يده ويتفتق ذهنه .

وقد حاول كثيرون إخراج مجلات للأطفال اختلفت من حيث الاتجاه والأسلوب فإن بعضها اعتمد أو بالغ فى الاعتماد فيها على التسلية حتى جعل اللغة العامية لغة الكتابة . وبعضها حاول أن يرتقى الى اتخاذ الأساليب المتبعة فى المجلات الاوربية الراقية للأطفال . وهذا يجب

أن نذكر التوفيق الذى حصلت عليه مجلة "بابا صادق" و إن كان المجال لا يزال واسعا فيها للتحسين والتجويد .

و بعد هذا العرض القصير الذى نحس أننا لم نلم فيه بالجهود الكثيرة الشريفة التى بذلها كثير من المؤلفين المضحين نرى أننا مازلنا فى البدايات الأولى فى ميدان التأليف للأطفال. وهناك عقيدة شائعة وهى أن كتب الأطفال يجب ألا يهتم بها غير صغار المؤلفين . وهذا اعتقاد فاسد . فإن التأليف للصغار يجب أن يقوم به خير المؤلفين وأعمقهم ادراكا لنفسية الطفل وأبصرهم بمستقبل الشباب .

وصبياننا فى فقر بالغ من المؤلفات التى توسع آفاق تفكيرهم . فان المؤلف البارع يستطيع أن يلقن الأطفال دروسا فى التاريخ والجغرافيا من حيث يسليهم بالقصص التى لا يشعرون فيها أنهم يكلفون واجبات الدرس . وكذلك الشأن فى كثير من المكتشفات والمخترعات العلمية التى تثير فضولهم إلى الاستزادة والتبحر فيها والطفل المتمدن هو ذلك الذى يقنى رفا من الكتب قبل أن يبلغ العاشرة من عمره و يجد فى نفسه هواية لأحد الفنون وهذه هى ثمرة الكتب التى قرأ فى سنيه الثلاث أو الأربع الماضية ، وهو الذى ترد اليه كل أسبوع مجلة راقية تحدثه عن شؤون العالم وتقص عليه كل ما جد فيه من اكتشاف أو اختراع مع ذكر حوادثه العظمى التى ينتبه لها ذهن الطفل سواء أكانت هجرة أحد الطيور من شواطئ البلطيق الى مصر ، أو صيد الفيلة عند فكتوريا نيانزا أو صورة أحدى الشوارع الجديدة فى نيويورك أو ما يجرى بين الصينيين واليابانيين من قتال وغير ذلك مما يجعل الطفل يقظ الذهن متعطشا إلى المعارف التى يطالبها بالمطالعة والحديث والدرس .

و إننا حين ننظر إلى كتب الأطفال فى اللغات الأجنبية و إلى ما ينفق عليها من آلاف الجنيهات لإخراجها أنيقة جميلة متينة حلوية نحتدم المعارف التى تجعل من الطفل فيلسوفا صغيرا و إنسانا متمدنا ، نحس بالأسف العظيم للفاقة الذهنية التى يعيش فيها أطفالنا وهى فاقة تكاد تكون كاملة لولا جهود هؤلاء المؤلفين الذين ذكرنا بل إن هذا الأسف ليزداد عندنا مادام الإقدام فى ميدان الصحافة لم يتناول إلا قليلا صحافة الأطفال. و إن المستقبل ليحدثنا و يسائلنا: هل نحن نعد له عدته بتعليم صبياننا وتثقيفهم حتى ينشأوا رجالا ونساء متمدنين ؟

إن الأطفال هم ورثة المستقبل . وجدير بالوارث أن يربى حتى لا يتلف تراثه . وخير التربية ما غرست أصوله فى سنى الطفولة .